التربية الاوربية

سادتي الاخوان الاعزة :

اوعز الي بعض اعضاء هذا المنتدى الكريم ان احدثكم بما رأيت في رحلتي الاخيرة الى اوربا فلم تسعني مخالفتهم لان الطلاب اعزة وتبادل الافكار معهم من اشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لايتسع وقتي الآن للاحاطة باطرافه كلها ولا اوقات الحضور الكرام الى وعيه وسماعه وذلك اقتصر منه في هذه الليلة على الاشارة الى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الاوربية في اماكنها واستطلاع طلابها العمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة . والما استصبح عفوكم اذا لحظتم في اقوالي شيئاً مما لم يعتد بعضكم سماعه فانا افض عليكم شعوري ولا احرج على الشاعر بان كما لا احرج على الشعراء .

اول مايقع عليه نظر الداخل الى ارض اوربية ذلك الانتظام العجيب في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط في اول وهلة على نموذج صالح من استجار العمران هنالك بل تجسم في عينه وذهنه ماسمعت اليه ولا تزال تسعى تلك الامم الراقية من الاخذ باسباب الراحة والبسطة من طريق التكامل العلمي والتفنن الاجتماعي والعملي .

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر المسافر كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والمدائن والحواضر والقواعد . وكل

(١) خطاب القاه في المنتدى الادبي في الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

فرع من فروع هذا الأرتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه الى مجلد برأسه حتى يجلي للسامع بعض تجلي وما راءه كمن سمعا

ماذا اذكر لكم ايها الاخوان من حال اوربا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتعليق العلم على المنار ؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس ؟ او باتساع متاجرها التي لا يحصيها العد ؟ او بارتقاء زراعتها التي تنادي بلسان حالها ومقالها بالله لا يبق بعد مالمته غاية ؟ ام اذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الادبية والنقابات التجارية والصناعية ام المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية ام المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف واولي التمثيل وعمال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كانت تختلف الينا في اوقاتها ويجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل والذي تتأثر بتغير المشاهد بحيث تأتي على مشاعري فلا استطيع التفريق في الحسنات كأنني ابتليت بداء الاستهتار لا اقف عيني على شيء ولا اسمع اذني بشيء ولا يتصور ذهني اني الا واخذ بعجلة وترق النفس في تحياله وتحار في وصفه

ولقد كنت عزمت ان ادون في مفكرتي ما يعرض لي من المناظر ويتردد في صدري من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس الدواير ولما كثرت علي الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت لك يا نفسي تكفيني متى عدت تحدثت قومك بما رأيته من تسجيل ما يعاق في ذهنك وبعضه ما فيه الغناء والكفاية

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصدقت في قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

ولا ان اليأس من اعظم الامراض في الافراد والجماعات تطاوعت النفس وقطعت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا التي اعتقد ان النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وان الأجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لنجلت بان قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتكاملة البطيئة التي نشهدها امر متعذر الا بعد قرون ان كتبت له الحياة. ولكن امامي مثال الدولة اليابانية ملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت اكبر الدول الاوربية في ثلاثين سنة وقد كن من كانت تعمل منذ ثلاثة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة

نعم ان اليأس يجب ان لا يطرق الباب وان كنا ويا للاسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا انواع الارباح والمكاسب ويستثمرون ثروتنا بكل ما فيها من ذرائع العلوم والفنون ونحن منهم بالفنون شاخصون شأن عبد مع سيده او جاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء اربعين عالماً من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل اسبوع في العلم الذي اخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من اراد فتدل على كرم الفرنسويين في العلم

وحضرت دروساً في مدارس أخرى ووقفت الى جانب خطب وحاضرات كثيرة فلم ار في اكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه

اذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم ابنائه علينا وانكم بعد هذا تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وعارفهم بمعارفنا وتضحكون بعدها او تبكون .

فالمحاضرة الاولى كانت في قاعة السوربون الكبرى اي كلية باريز وهي المكان الذي جرت العادة ان يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فاقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفال باعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنت بحضور جماعة من اعضاء المجمع الفرنسوي ولم يكن الحضور اقل من الف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو استاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسوية في الشرق الاقصى . شرح في محاضرته ما لاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي وافى على ما وافى اليه من الاكتشافات الاثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذلك التعصب ان اتى على الآثار بجملتها . وقد قرع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة انواع التقريع . اما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وافريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديماً قال الشاعر يقول « السيف اصدق انباء من الكتب » فاذا ارادت امة ان تفتح بلداً اخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف اما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد اولاً ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والامثلة على ذلك كثيرة

وقد ادعى بلو صاحب البعثة والذاب انه على حق فيما ادعاه ان ماوقع الى جلبه من الآثار قد اغنى مكتبة الامة في باريز بالوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما اغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فاصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في اوربا ويحق لها ان تفاخر بان مجموعة ماعندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في العرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ولاسيما في مقاطعات قاشار واورومتي البحث عن بقايا التمدن البودي الذي سبق الدين الاسلامي الى هناك وانه رأى جميع اهل التركستان من اهل الاسلام واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الاماكن المطروقة اذ كانت تعبث بها ايدي المتعصبين منهم

وقال انه رأى اسباب الحظ ان قد سبقه الى ارتياد تلك الاصقاع الناس من الالمان والانكليز واليابان والروس الغاية نفسها ولكنه وفق الى ان اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشوك مثلاً بودياً صغيراً بين الصناعة اليونانية والبودية حري بان يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة والغربية وظفر في قاشار تحت انقاض احد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فاحرز قسمها بواسطة راهب القطع في تلك المعابر ووصف تلك البقاع بانه لاتحيا فيها ولاعشب مع ذلك تمشي فيها الوفا من الكيلومترات الايام الا في بعض الواحات . واكثر تلك الاصقاع جبال شاهقة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل الى الاربعين درجة وفي الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الجهد يجمد في ايدي اعضاء البعثة متى ارادوا ان يقيدوا آثارهم وقد اخذ احد اعضاء البعثة صورة

طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد ملكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغني المتحف الطبيعي ويصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بانفسهم الى تلك الاصقاع النائية .

هذه المحاضرة الاولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفي وسمعت بها مهابة أمتي بأذني . والمحاضرة الثانية القاها المسيو تاردیو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الدان في الدولة العثمانية فهو اول الخصائي في سياسة الشرق ولا سيما دولة بلغب التي بين اصبعه كما تشاء حكومته . حضرت خطابة له في مدرسة العلوم الشرقية الحية القاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء . بيان لم اسمع من العرب ولا من العجم اطلع منه لم اتمتع ولم يدهش ولم يكثر . فما رأيت انساناً درس موضوعه واعده للمواد التاريخية والمستندات اكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبي يتزايد على هذه الدولة اكثر من عجبي بدلالة لسانه فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول في الحروب الصليبية قد اتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم تر خيراً لها من تلك الخلافة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بجيشها الى القريم يحارب مع الانكليز والسردينيين جيوش الروس لان مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وافاض في انشاء الامتيازات

الاجنبية في البلاد المصرية والعثمانية وقال ان فرنسا في كل دور من ادوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وان لها اليد الطولى في المسألة الشرقية اي استقلال بلاد اليونان والبرتغال وانها لا تقصر كل حين في بث مصورين اعضاء هذه الدولة حتى غيرت وغنى

فيا اخواني وياساداتي اسمعوا مقالي هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تضرب كفاً وحسرة وتسودوا الدنيا في عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب ؟

نحن اليوم لا نحافظ كياننا ولا نحفظ بلادنا وبيتنا وآتينا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بسيف الحق يقاتلونا به - واعني به سيف العلم - نحن يقضي علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما يدفعنا اقبام مجهما نأخذ عن رجال العلم منهم ونحاك بهم لنستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها

رأيت الدولة بعد قلائل الاخير بعثت زمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس اوربا ولا سيما في مدارس باريز فقدرت عددهم قليلاً جداً بالنسبة لعموم هذه الامة - واني لا اجهل ان القول لكم ان عدد الطلبة العثمانيين في روسيا والنمسا وانجلترا وفرنسا والجرمك والكثير اكثر من عدد الطلبة المصريين وانكم ان تقولوا ان جميع حالة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهم الافراد شأناً عظيماً في هذا الباب وكثيراً ما يتفق الطالب من مال ابيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد اتى على آخر قرش مما عنده وهو مغتبط عاصم لانه اخر ذرأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم امته وبلاده

نحن مقصرون كل القصور في ارسال ابنائنا الى ديار الغرب يلتقطون درر العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى اكثر العثمانيين قصوراً . ولقد احصيت جميع من يدرسون من ابناء سورية في اوربا على نفقة الحكومة او على نفقاتهم فلم اقدر ان اوصلهم الى ثلاثين طالباً اكثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين . هذا من سورية ارقى البلاد العربية وما اظن احداً من ابناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الاقاليم العربية يدرس في مدارس اوربا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً خمسة عشر مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخمود هم كاد يصدق به علينا حكم الغريب . واني لارجو ان لا تكون اقوالنا اكثر من افعالنا فان الكلام لا اثر له بقدر الفعل . نريد معاشر العرب ان نجاري الامم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الاقل في مضمار العلم ؟

نتناغى بالوطنية وندعي حفظ اللغة العربية ونحن ابناؤها الذين تعقها ولا تعلمها . ليس مما يزعج ان يخاطب الغربي اباه وامه واخاه وصديقه بغير لغته الاصلية ؟ يعمل ذلك لا ليتمرن على تلفظ غيرلغته بل لانه لا يعرف ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون في الاكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها افهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد اذا لم اخاطبهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها . انا ان كنت

اريد الاطلاع على مجد آبائي واجدادي أ أتمكن من ذلك بدون دراسة ماخلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا الا بالالمة التي كتبوا بها ؟ اقول هذا واني آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا اراني اذا قلت ان فيه العار والشنار .

ايزهد سلالة العرب الاكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون اكثر من علماء العرب انفسهم ؟ ايزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل انجمي في الستين من عمره . واعني به الكنت دي ساردنج الفرنسوي . هذا الرجل من اهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيراً في طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنيا ميشل افندي بيطار وانشأ يخرج به فقطع شوطاً في التعلم واذ كانت المراعي تضطره الى المقام في قصره في سويسرا اكثر من باريز وكان استاذه لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذه ان يبعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لا يضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فاذا آب الى العاصمة يعاود مابدأ به .

هذا الرجل على ابواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول ان يتعلم لغة شرقية لا عهد له بمعرفتها . او ان يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية اهله وشبان العرب انفسهم يتوقعون عن ان يقضوا ولو بعض اوقات فراغهم في

إحكام الدنهم . هذا هو مثال صغير من امثلة الهمم في الشرق وامثلتها في الغرب فهل فيكم يا شباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشي على اقدام هذا الشيخ الفراسوي حتى لايجيء علينا وقت نضطر فيه ان نأخذ امتنا بل ديننا عن اوربا ونكون تحت وصايتها حتى في امس الامور بنا واعلقها بقلوبنا ؟

كل ماراه من همم الغربيين ومثابرتهم هو بحصول الكتاب والمدرسة فانتم وامثالكم شباب هذه الامة في ايدي اقتداركم ان تجددوا لها شبابها الذاوضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب بقضاء سنين في الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقاءنا وسعادتهم ليعلم اني لا اغالي فيما اوردته لكم بل انني عاجز عن الوصف والتعريف . ولا يقفن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لايتيسر الا لابكار الاغنياء فالعيش في معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجور عالية لايكاد يكون لها اجور ومنها ماالاجرة للطالب فيه مع الاكل والنوم والدرس ستون فرنكا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لايصعب على احد فيما احسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده

يابناء قومي ويازهرات أمتي ! أليس من العار ان تكون بلادنا التي لاتعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة خالية من عاملين بها على الاصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في اوربا سوى طالبين اثنين احدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من اعمال البلجيك وهو رفيق بك يضون من بيروت والآخر في كرنيون من اعمال باريز في مدرسة كرنيون الزراعية

واسمه مصطفى افندي الكيلاني من حماة كلاهما من ابناء الاعيان ولهما اراض ومزارع فيها عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في ابناء سورية بل البلاد العربية احد من ابناء الاعيان يملك اراضي وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثار ولكن يحبي المدرس فلائل اهذا في فن الزراعة فمتى يقوم منا الناس لتعلم الكهربائية وعد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية والبحرية والتجارة وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الاوربيين

زرت مدرسة كرتيون الزراعية وهي على مسافة ساعة من باريز فرأيت ثمارها مكتوباً بقلم غليظ في مكانتها بما معناه : « الارض في الوطن ومن تو فريق تحسينها بخدم وطنه » ولكن قومي غفرانك لي ولهم يعتقدون هذا الفن فيما ارى . فان كنا نختلف في البديهيات فمتى نتفق في غيرها ؟

زرت كرتيون ورأيت بها ان عبد القادر الكيلاني يدرس مشاتل الزراع ويدرس كما يدرس ابناء الاعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه واطلعني على مافي مدرسته من متاحف وممارض واصطبلات وحظائر تربية الماشية وحدائق لغرس النبات والفول وغابات للنزهة والانتفاع وادوات العمل وحرث الارض وكربها

رأيت كل هذا واكبرته وقلت في نفسي لو احد السوريون في الزراعة وتربية الماشية حدو الفرنسيس فيها وترجموه تلاميذ تربيتنا وقاليمهم اشبه باقاليمها لاغتنينا غنى يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الانكلية فقد ذكروا لي ان خروج تلامذته ادارة المدرسة سنين على الطريقة العلمية فهم في احد المعارض بسبعين ليرة فاين خرجاتنا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علقناها

بجهلنا وسلطنا واطماعنا السبب القشر او الشيح والقيصوم والعرار والعرعر

ولكن الآمال معقودة بان نعلف خواطرنا على طريقتهم ونشعر تربتنا على اصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع اولادنا وناشئتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك ابناء هذا القطر في النور على زكاء التربية في نفوسهم لهذه الامة على مستوى عدم التمييز كي النفوس في عصره . وتزكية التربية لا تقل عن زكية التربية والمآل واحد .

مدرسة كريون الزراعية هي التي اوصى ببناء الاعيان وعيرهم الى التفرج فيها لتحصب صدورنا بعد اجدابها وقلوبنا بعد قفرها والمال مبدأ كل عمل والمحة كل ارتقاء مادي وادبي

نحن لا نرقى في المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلاً في شقشقة الالسن والكتابات الحبرية . ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت ايضاً بانتظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز . زرتها بالدعوة من صديقي مرسي الفاضل محمود احد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كريون من اسعد الايام التي قضيتها في ارض الفرنسيس واني احب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه ادمون ديمولانس درس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تفوق الانكليز السكسونيين الذي نقل الى

العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله الناس من ارباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام باستقلالها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية الباء الفرنسيس على الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأسست الجمعية ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة بوش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى في اقليم نورماندية لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى في ليانكور أسست سنة ١٩٠٢ وهي التي اريد ان احدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو الاثنا عشر آلاف وخمسمائة وهي على نحو ساعة من باريز في الشمال في مقاطعة فالوزيها مأوى سائر بلاد فرانسا من انواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية العلمية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفي قصر الدوك دي لاروشفوكول الواسط المشهور صاحب الحكمات المأثورة الذي أسس بيت التوفير في فرنسا في اواسط القرن التاسع عشر قامت هذه المدرسة العملية . وقصره هذا في ارض مساحتها مائتا هكتار اي نحو ثمانمائة فدان لم يبق منها الا دائرة حشمه اما دائرة قصره فقد اتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد بنيت المدرسة في تلك الدائرة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها .

في هذه البقعة الجميلة الواسعة بل الابهية الكبيرة والحانوت الفخم التي حوت الغابات والمروج والحدائق والمدران والاكام والسهول يترى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسويون واكثرهم من ابناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتغاليين والاميركيين

والمصريين . يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة وقد رفعت عنهم اكثر القيود التي تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على احدهم ان يركض ويرفع صوته في المدرسة او في حجر الدروس وان يلعب في الاماكن التي هي ممر لاحوالها وان لايخرج من المدرسة ولا يركب في قارب في الغدير بدون رخصة اولاً وان لايبتاع اي شيء كان من المدينة بدون استئذان وان لايدخل جرائد ولا كتباً الاذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومي الخميس والاحد وان لايعبث بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وان لايتكلم بعد ان يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل ان يستيقظ رفاقه صباحاً وماعدا ذلك فهو حر ان يلعب اللعب الذي يختاره في الاوقات التي خصصت لذلك من الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لاتكبر على التلميذ لانه يعرف انه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك . والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو بلا وهو فرنسوي لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم في البلاد . وفي المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة . ورئيسة المدرسة الآنسة باري من اقرباء اديون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين في التربية ومن اولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنان ماليان

ويقسم التلامذة بحسب اسنانهم واستعدادهم ولا يخلط الكبار بالصغار

الا في بعض ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكالوريا او العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهي عن العلم العملي بمعزل . فالمدرسة تربي الارادة والعين والذوق واليد والجسم اكثر مما تربي الذهن والذاكرة

وامناء الصفوف كمعلوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في التعليم ويلاحظون الدروس ايضاً ولا يراجعون التلامذة في ما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفي لذلك ويتولى الاولاد بانفسهم امور امهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق اكثر الاولاد هذه الطريقة خصوصاً واكثر من فيها من ابناء الاغنياء والامراء اعتادوا ان يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من امورهم عناية اعفتهم عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والفرق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الاحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها وعلى الطلبة ان يحضروا ثلاث جلسات في الاسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة اساتذة في هذه الالعاب . وفي المدرسة دار تمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم اشبه بمكتب رجل منه بقسطر تجليد لكل واحد منضدة عليها دواة وورق ناشف ينصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية اكثر منها نظرية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي احب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المعوى والفخار والجلد وغيرها

وذلك بمشاركة اساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويبدون رأيهم اللذان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه فاذا عاد الى اهله يستطيع ان يصنع بذاته عملاً من مثل ذلك فلا يكون فرق بين عمله في المدرسة وعمله بعد الخروج منها ويتولى اكثر شؤونه كما فلما بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فان الرياضات التي يقومون بها في البساتين والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة ام ركباناً على الدراجات تزيد في قوائم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعاب النهار

وتقتار هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها برفقة اساتذتهم او بعضهم الى البلاد المجاورة كانجلترا وهولاندا او غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الاحوال التي كثيراً ما تصادف الانسان في حياته وذلك ايضاً ليتعلموا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت بتلك الايام وتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة ايام وكل من حسنات اخلاقه ودروسه يرحل به ايضاً كل ثلاثة اشهر مرة او مرتين يوماً او بعض يوم الى مكان بعيد والمدرسة في الصيف شهران ايضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوماً وتستوفي المدرسة اجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك اكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع اجرتها على حدة . وهو مبلغ كبير بالنسبة لاهل بلادنا ولكنه لا يستكثر

في مدرسة مثل هذه تتفق النفقات الطائلة على الاساتذة والمعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وترى الحواس بالعمل اكثر من تربية الذاكرة

حدثني احد اساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديولافس ان تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى اقتبس اوضاع المدروس والرياضات التي مايشبه الاوضاع الفرنسوية لان ملتوهمه ديولافس من انه يمكن تطبيقه في بلاده فتفاعل فيه كثيراً ولو كان حياً — سنات منذ خمسين — لرجع عن كثيرمما تعاه على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسياستها في ضعفها . وهو قول حق سديد لان مايوافق امة لايطبق بالحرف على اخرى والمادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في اوضاع الامة على ان هذه المدة قد افادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسوية مع ماتي عليه من الحسن في في رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة

تقدم ان تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتغاليين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولاسيما كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها العاليات من الاناث وفي لائحة ذكر التي حضرت خطبة اودوراً او مجلساً علمياً ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الا ورأيت الفتيات سبقنني الى تلك الاماكن ومعظمهن روسيات وانكليزيات والمانيات وبلجيكيات وبولونيات . والبولونيات (١) اكثر الفتيات الاجنبيات في فرنسا واكثرهن عناية بتعلم

(١) شاركت النساء الرجال في اوربا في كل عمل من اعمال الحياة وفي فرنسا شاركن الرجال في الامور الدينية ايضاً ولذلك مايطبع في فرنسا من الكتب هو من اقلام الكاثوليك

اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن تتكلم على الاقل خمسها الا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسوية واجادتها النطق بها اصالة ايكاد يقيس منها امريكا ولا انجليز عن اللغة وهن مع هذا اكثر النساء الاوربيات تفانياً في احكام ملكة العقل وحرصاً على آدابها وتلقيها

واقد كانت المرأة البولونية تعلم اولادها العلم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لجهلهم روسا مع الين المعاملات دولة ليحل وبال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب اخماد الثورة الاولى كان من البواعث بين الى فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ نيف ونصف تحت سلطة الروس زهاء اربعة آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس النوعية بلغتهم ويقصدهم اساتذة ولا فوز بمناصب التعليم للاجانب

فالمرأة البولونية ولو عنيت بتعليم لغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها

والشاعرات وكثيرات سبين وكتبن ويحدن كالرجال مثل مارسل بنيار مؤلفة كتاب دار التعليم لكونتس دي نوبل والعلية دي ربه امرأة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومن هاتين صاحبة كتاب الى البيت المقدس وذكرياته الى من المشهورات. والفلسفة الادبية بين الجنسين الشبيهة والمختلفة عن الهما في فرنسا حتى قال في احد كتبهم انه يجب ان يوم على فرنسا لاعلى تكتلها وحده للعالم الان بما فيها في مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلها . ولعل من بديع في اوربا بعد عشرين سنة يشاهد ما تشيده الآن من الارتقاء العلمي والادبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي وما يكن من بريطانيا الى فرنسا كنكة حديثة بل كانت فيها حاضرة بالقوة الفعلية فترى ونتأمل حتى تركن اليك فياد الى هذا القرن فتركب القطارات في اوربا جميعاً وهنا نحن اليوم في اسيا ما يكن يشهد من السيارات الارضية والطيارات الهوائية والمواصلات في العلوم والصناعات الادبية الا يشهد اولاد اولادنا بعد ياترى ؟

وطنيتها المحافظا اسأل الفتاة ترقا لمن ينضم حتى انها اذا تزوجت من اجنبي لا تلبث ان تصبح اولادها بصبغة الجنسية الصغار بسبرات ان يسن في الولايات قانونا يحظر فيه على الفتيات الالاتي ان يتزوجوا من البوزيات اثبتت له ان الوطنية الالمانية كادت تضعف وبيروها الاضلال في القسم الذي اصاب مملكة روسيا من ارث صاحب بولونيا

فاليت شعري متى يكون لساوتا بار رجالنا في هذه المزلة من هذا الوطنية مع الفرض على الجامعة المثالية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى البقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن ان العصفا لا نتزع بدنا من الجامعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا والمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاضد ويعرف ان التركب الكبير يستحيل ان يأتي عليه الانواء بقدر ما تقتدر بالصغير فقد يغرق هذا او يستغرق في غيره ولا من يسمع به

تعلمنا اوربا واميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة اوربية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة اميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحدة المسلمين باسباب الغلبة الحربية بان تزيد في تكاتفها وتكافلها وترحم من بيننا بنوء النظم بسعي العقلاء منا

هات المجال وبت اخشى عليكم الملال فهل تأذنون بان اختم بجملة واحدة للمقارنة بين اخلاقنا واخلاق الغربيين وهي الاخلاق التي كانت من اعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاطنا وانك انني

تبنت بالاختبار ان الافرنج اكثر تفكراً منا في مصادر الاحوال وموارده فهم لا يقدمون على امر قبل ان يوقنوا من انفسهم الغناء فيه فالصانع في الغالب لا يتطاول الى ان يكون سياسياً والمحامي لا يعمل في الزراعة وهكذا اختص اهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص او الاخصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق

الغربي يفتخر بانه لا يعرف غير ما تعلمه في مدرسته وحصله من حرفته ولكنه تعلمه فبرز فيه واحاط باطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية . اما نحن فسارع في الهبوب كما نسارع الى الركوب فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك

الغربي يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم هيكل وجميع شؤون حضارتهم فخمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر اعمالنا مختلة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها اول مرة فاذا ماذهب تذهب بذهابه

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع بكل شيء ونحن من عادتنا ان نهزأ في الاكثر بكل شيء

الغربي يدخل الاصلاح الى داره ويتمم امته بالتدريج بحسب سنة الشهود في عالم الكون والفساد ونحن نحب ان نطفر طفرة في اصلاحنا والطفرة محال لان سنن الفطرة لا تحالف ولا تحايد . الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم . الغربي معتدل على الاكثر في عامة احواله ونحن اميل الى الافراط والتفريط . الغربي يعد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض او واجب فالغربي كما احسن تقسيم الاعمال والاخصاء فيها

احسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن في اوقات الجد وهزله هزل ولكن في اوقات الهزل وزهته زهة ولكن في اوقات الزهة وهذه عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي ويا للاسف ليس كذلك .

احسن الطبائع في العربي خلق الاعتماد على النفس والكرامة فهو يعتمد على كفايته اولاً ثم على محيطه وامته وقد يهتم في الاكثر بمصلحة امته اهتمامه لاعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل عربي راقي امة برأسه وامة تتألف من افراد هذا حال سوادهم الاعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الارض سلطانها . فالله اسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار انفسكم ومقدار الآمال التي تعقدها عليكم امتكم بقدر ذلك وجوهكم وبيض بكم وجوهنا

سير العلم والاجتماع

المدرس في النزهة

اعتادت بعض المدارس في الغرب ان تخرج تلامذتها في ايام معينة من الاسبوع الى الضواحي تدرسهم في كتاب الطبيعة مبتدئين عن الحقائر والكتب وجدران صفوفهم مابحرون حواسهم من رقيادته نظرهم من العلياء وتجهيم معالم بلادهم ومجاهلها وهذا ما سماه احد علماء التربية بمدارس النزهة وليست هذه المدارس عبارة عن نزهة بسيطة يهيم فيها التلامذة والاساتذة على وجوههم كما في نزهات المدارس بل انها نزهات في الى الجد اكثر منها الى الهزل وخطتها واسعة لانها تجمع بين الولد والارض والحياة وتعلم التفكير والتبصر والتفكر والشعور بالحقيقة وجمال الموجودات حيوانات كانت او جمادات ونوقه